مع ابن سينا في عبره الأولى

ملوك وأمراء

في حياة الرئيس ابن سينا

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

لعل أوثق المصادر عن ابن سينا وحياته هو الشيخ الرئيس ابن سينا نفسه في الترجمة التي كتبها بجيبا بها عن سؤال أحد تلاميذه إياه. وقد أكمل هذه الترجمة تلميذه وتابعه وصاحبه منذ أن اتصل به في إقليم جورجان إلى حين وفاته. وهذه الترجمة محفوظة بالمتحف البريطاني (١) في نسخة لا تزال خطية. وقد استفاد منها ابن أبي أصيبعة فنقلها في كتابه «عيون الأنباء» (٢) كما نقل أكثرها المؤرخ القفطي المصري في كتابه «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» (٣)

ولقد عاش ابن سينا في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري والثلث الأول من القرن الخامس، لأنه توفي في سنة ٤٢٨ هـ وهو عصر كثر فيه تقسيم الدولة العباسية إلى دويلات صغيرة، فهناك الدولة البويهية التي وقع تحت سلطانها خلفاء بغداد، وخاصة الطائع والقادر والقائم الذين عاش ابن سينا في مدة خلافتهم (٤). وهناك الدولة السامانية ببخارى في إقليم خراسان وما وراء النهر. وكان الأمير نوح بن منصور بن سامان هو الأمير الثامن (٥) من ملوك هذه الدولة، وهو الأمير الذي دعي ابن سينا لمداواته كما سيأتي بعد (٦). وكان هناك دولة المأمونيين ولاة خوارزم الذين سميت دولتهم بالدولة الخوارزمشاهية. وهي دولة لا يعرف على وجه التحقيق اسم مؤسسها.

(١) جهار مقالة للسمرقندي. ص ١٧٦ لطيفات العلامة القزويني
(٢) عيون الأنباء حـ ٢ ص ٣
(٣) طبعة الخانجي ص ٣٦٩ — ٣٧٨ هـ
(٤) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري بك حـ ٣ ص ٤٤٠
(٥) المصدر السابق ص ٣٤٨
(٦) عيون الأنباء حـ ٢ ص ٤ والقفطي ص ٢٧١ طبع مطبعة السعادة ٣٨٠٢

ولكن اسمها يبدأ في الظهور منذ سنة ٣٨٠ هـ — أي بعد ميلاد ابن سينا بعشر سنين — وفي عهد أميرها الثاني علي بن مأمون بن محمد بن خوارزم مشاه جاء ابن سينا من بخارى إلى جرجانية «كركانج» فأكرم الأمير وفادته، وأمر له بمشاهرة دارة تقوم بكفاية مثله (٧). وهناك كانت دولة جرجان وكان ملكها الأمير قابوس بن وشمكير الكاتب المترسل الأمير الذي قصده ابن سينا بعد خروجه من خراسان، ولكن اتفق في تلك الأثناء أن قبض على الأمير قابوس وحبس في بعض القلاع ومات هناك (٨). وكان هناك من ملوك الديلم مجد الدولة بن فخر الدولة الديلمي. ومجد الدولة هذا هو أخو شمس الدولة من ملوك همذان. وكانت الأميرة «سيدة» والدة مجد الدولة الديلمي هي المرجع في تدبير الملك، وعن رأيها يصدر الأمراء والولاة في مباشرة الأعمال (٩): وكان هناك دولة أصفهان وأميرها علاء الدولة بن كاكويه، وكان ملكا على أصفهان وملحقاتها، وحكم من سنة ٣٩٨ إلى سنة ٤٣٣. وكان أبوه خال الأميرة «سيدة» والدة مجد الدولة بن بويه الديلمي، ولهذا سمي «كاكويه» لأن الخال في لغة الديلم يسمى «كاكو» أو «كاكويه» (١٠). وعلاء الدولة هذا هو الذي اتصل به الشيخ الرئيس ابن سينا، وصار من أصحاب الحظوة عنده، وبقي في خدمته إلى آخر عمره، ولكنه لم يكن له وزيرا في يوم من الأيام (١١). أما الوزارة فكانت من ابن سينا لشمس الدولة أخي مجد الدولة؛ فقد وزر له مرتين ما بين سنتي ٤٠٥ هـ، ٤١٢ هـ.

وكان هناك — فوق ذلك — في عصر ابن سينا الدولة الغزنوية التي كان أول ملوكها «سبكتكين» سنة ٣٦٦ هـ. كما كان محمود الغزنوي — المعروف بيمين الدولة محمود بن سبكتكين — هو ثالث ملوكها. وهذا الفاتح العظيم قد أثار حروبا كثيرة في حياته وفي عصر ابن سينا بالذات. فهو فوق غزوه لبلاد الهند

(٧) جهار مقالة — طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ١٦٩. وعيون الأنباء. والقفطي ص ٢٧١
(٨) عيون الأنباء حـ ٢ ص ٤، والقفطي ص ٢٧١
(٩) الكامل لابن الأثير حـ ٧ ص ١٨٦
(١٠) العروضي السمرقندي ص ١٧٤
(١١) المصدر السابق ١٧٤

وفتحه لها قد حارب دولة خوارزمشاه (١٢) وملك خوارزم سنة ٤٠٧ هـ . وهي دولة انصل ابن سينا بها وبأميرها علي بن المأمون كما أسلفنا . ولم يكتف محمود الغزنوي بهذا ، بل استغل ما بين الأمراء والملوك حوله من خصومات ونزاع ، فدخل بينهم لمصلحة دولته الناشئة القوية . كما فعل في الحرب التي قامت بين سلطان الدولة البويهي وأخيه أبي الفوارس بن بهاء الدولة . وكانت محمود الغزنوي كان يستمد لافتراس هذه الدويلات المتقاطعة المتناحرة دولة بعد دولة . وكان همه بالذات متجها إلى إمارات بني بويه ، ففي سنة ٤٢٠ هـ اتجه إلى إقليم الري ، وكان عليه الأمير مجد الدولة بن فخر الدولة بن بويه فملكه محمود الغزنوي . كما ملك إقليم الجبل . وفي سنة ٤٢١ هـ وجه مسعود ابن يمين الدولة الغزنوي جيشا إلى إقليم همذان . أما علاء الدولة بن كاكويه — وهو الأمير الذي اتصل به ابن سينا في أصفهان — فلم يسلم من غارات الدولة الغزنوية التي دخلت جيوشها « الري » فانهزم علاء الدولة وجرح في رأسه وكتفه وهرب تاركا إقليمه في يد السلطان مسعود الغزنوي بن محمود الغزنوي (١٣)

على أن هذه لم تكن آخر حروب السلطان مسعود الغزنوي ابن محمود الغزنوي ضد علاء الدولة بن كاكويه : ففي سنة ٤٢٥ هـ — أي قبل وفاة ابن سينا بثلاث سنوات — اتفق علاء الدولة مع فرهاذ بن مرداويج على قتال عسكر السلطان مسعود الغزنوي . ولكن الحظ خان علاء الدولة حتى بعد احتمائه بالجبال الشاهقة بين أصبهان وجرباذقان . فتقدم أبو سهل الحمدوني قائد جيش الغزنوي إلى أصبهان وملكها . وفي هذه المعركة نهبت خزائن علاء الدولة بن كاكويه وأخذت أمواله الطائلة . وفي هذه المعركة بالذات كان الشيخ الرئيس ابن سينا في خدمة علاء الدولة — ولم يكن وزيراً له — فأخذت كتب الشيخ وحملت إلى غزنة — عاصمة الدولة الغزنوية — وجعلت في خزائن كتبها إلى أن أحرقت على يد عساكر الحسين الغوري (١٤)

لقد عاش ابن سينا في هذا العصر الزاخر بأحداث كبار ، ورأى بعينيه كيف كان يتقاتل الإخوة وأبناء العم على الملك والسلطان ، كما حدث بين أفراد أسرة بني بويه في الري وأصفهان وهمذان وجرجان ؛ بل اتصل من قرب بالأمير شمس الدولة بن فخر الدولة أمير همذان ، وشاهد الأحداث التي جرت له مع أقاربه بني بويه من ناحية ، ومع ملك الغزنويين من ناحية أخرى . واتصل ابن سينا أكثر من ذلك بالأمير علاء الدولة بن كاكويه ؛ وهو يتصل ببني بويه أيضاً — لأن والده « دشمنزيار » هو خال الأميرة « سيدة » والدة مجد الدولة بن فخر الدولة البويهي . وشاهد ابن سينا في أثناء اتصاله بابن كاكويه كثيراً من الأمور الجسام ، فلم تسلم مدينة من مدن العراق وفارس من ثورة أو غارة للمتحاربين المتنابذين ، بل لم تسلم أصبهان نفسها من حوادث النهب والسلب على أثر استيلاء جند السلطان مسعود الغزنوي عليها . وفي غمار هذه المعركة نهبت كتب الشيخ الرئيس ونقلت إلى غزنة ، إلى أن كتب عليها أن تحرق على يد محارب آخر من رجال الدولة الغورية

وقد لقي ابن سينا من ملوك الدول القائمة في عصره الأمير نوح بن منصور الساماني ، والأمير علي بن المأمون الخوارزمشاهي ، والأمير شمس الدولة بن فخر الدولة البويهي الديلمي ، ووزر له مرتين ، والأمير علاء الدولة بن كاكويه أمير أصبهان ، واتصل به وألف باسمه كتباً كثيرة ، ونكب معه في غارة السلطان مسعود الغزنوي على أصبهان . أما الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير ملك جرجان فيظهر من كلام الشيخ ابن سينا نفسه أنه لم يقابله ، وأنه كان يقصده ، فاتفق القبض على قابوس وحبسه في بعض القلاع ومونه . وهو نص لا يدل على لقاء الشيخ الرئيس لهذا الملك الأديب العظيم ... إلا أن العروضي السمرقندي صاحب كتاب « جهار مقالة » يذكر حادثة طريفة بارعة عن ابن سينا واستخباره أحوال بعض العاشقين واسم

(١٢) ابن الأثير حـ ٧ ص ٢٨٢
(١٣) الكامل لابن الأثير حـ ٧ ص ٣٤٨
(١٤) الكامل لابن الأثير حـ ٨ ص ٦